

التضاد في مناجاة ميخائيل نعيمة (نجوى الغروب)

Antagonism in the soliloquy of Mikhail Naimy (Najwa Al-Ghoroub)

أ.م.د. وسن منصور الحلو

كلية الآداب – جامعة بغداد

قسم اللغة العربية

wasanmansor@coart.uobaghdad.edu.iq

Assist. Prof. Dr. Wasan Mansour Al-Helou

المستخلص

يسعى هذا البحث الى دراسة التضاد وجمالياته في كتاب نجوى الغروب للأديب ميخائيل نعيمة، إذ تعد هذه الظاهرة من الصور الأسلوبية المميزة في كتابه مما جعلنا نقول ان نجوى الغروب صورة من صور التضاد، وتهدف هذه الدراسة الى بيان جماليات التضاد في كتابه الذي جاء ليس بنثر ولا بشعر، كما تبرز فيه الأهمية الدلالية لهذه الظاهرة والدور الذي تؤديه في تجسيد رؤية الأديب تجاه مجتمعه وحياته بشكل عام، كما تبين هذه الدراسة الفلسفة التي يمتلكها ميخائيل، فضلاً عما يحمله المتلقي من قدرة على التحليل.

الكلمات المفتاحية: التضاد، الانزياح، الإبداع، التكرار، السيميائية

Abstract

This research seeks to study antagonism and its aesthetics in the book Najwa Al-Ghoroub by Mikhail Naimy, as this phenomenon is one of the distinctive stylistic images in his book, which made us say that Najwa Al-Ghoroub is a form of antagonism.

This study aims to demonstrate the aesthetics of antagonism, in his book, which came neither in prose nor in poetry, the study also aims to show the

semantic importance of this phenomenon and the role it plays in embodying the vision of the writer towards his society and his life in general.

This study also shows the philosophy that Mikhail possesses, as well as the ability of the recipient to analyze.

Keywords: opposition, displacement, creativity, repetition, semiotics

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه سيد الخلق محمد وآله الطيبين الطاهرين، يعد التضاد من المصطلحات البلاغية، وقد استعمله البلاغيون بمسميات عدة، منها المقابلة أو الطباق، ونتيجة لحصول التطور للمجتمع وتلاقح الثقافات ووصول الثقافات الغربية إلينا عن طريق الترجمة فكان ثمارها هذه المسميات الجديدة للطباق هي: المقابلة، والثنائيات، والتشاكل، والتضاد، فكل شيء في الحياة قائم على التضاد، فالكون وما فيه قائم على التضاد أيضاً، فهو يقوم على الواقع الذي نعيش فيه والمثالية التي نبحت عنها، فالتضاد عند ميخائيل نعيمة من أبرز السمات الأسلوبية التي قامت عليها كتابته في نجوى الغروب، فهي مناجات من أول ما كتبت فيه إلى آخره، فالكتاب جاء غريباً، فلا هو بنثر ولا هو بشعر بل نجده من البداية إلى النهاية صلاة واحدة اتخذت شكل حوار من طرف واحد بين المصلي وربّه، وكان هدفنا الكشف عن القيمة الدلالة لهذه الظاهرة وعن دورها في تجسيد رؤية الأديب، فكانت كل مناجاة من مناجاته تمثل لوحة فنية قائمة بذاتها.

يعد ميخائيل نعيمة في اعتقاد النقاد أحد أهم أدباء الأدب العربي الحديث في المهجر والوطن العربي، عاش تسعة وتسعين عاماً وهو يكتب كتباً مميزة تبني الإنسان والمجتمع، وتظهر فكرة التجديد في فكره وثقافته فقد كان الناقد والشاعر فضلاً عن أنه كان فيلسوفاً واعتمد على ذائقة الفنية البلاغية فقد استعان واعتمد على الفطرة والعفوية والسليقة متجاوزاً المقاييس البلاغية القديمة المعتمدة في النظر إلى الشعر والحكم عليه، ففي شعره ابتكر موضوعات شعرية استمدتها من تجاربه الذاتية، وتعلقه بالطبيعة الحية الناطقة، فكانت أشعاره مستوحاة منها، فهو المفكر والشاعر والناقد والمترجم والمقال، فقد جاء بشيء غريب كما قلنا لا هو بشعر كما يفهم ولا هو بنثر، بل هو حوار داخلي بينه وبين نفسه مع خالقه.

التضاد في اللغة:

الضد في اللغة كل شيء ضاد شيئاً ليغلبه، والسواد ضد البياض، والموت ضد الحياة، والليل ضد النهار، إذا جاء هذا ذهب

ذلك... ويقال ضادني فلان إذا خالفني، فاردت طولاً وأراد قصراً (ابن منظور، د.ت)، الصفحات ٢٥٦٤-٢٥٦٥، مادة ضد، كما ورد

في قاموس المحيط في قوله: الضد بالكسر والضم: المثل والمخالف وضد ويكون جمعا ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلِيمًا ضِدًّا﴾ (سورة مريم، صفحة ٣١١/ الآية: ٨٢) وضده في الخصومة: غلبه وضد عنه: صرفه ومنعه برفق، وضد القرية: ملاها واضد: غضب، وبنو ضد بالكسر قبيلة من عاد، وضاده: خالفه وهما متضادان (الفيروزآبادي، ١٩٧١، صفحة ٣١٩).

أما في معجم الوسيط: الضد: المخالف والمنافي، والمثل والنظير والكفاء (ج) أضداد، ويقال: هذا اللفظ من الأضداد: من المفردات الدالة على معنيين متباينين، كالجون للأسود والأبيض. (معجم الوسيط، ١٤٢٥-٢٠٠٤، صفحة ٥٦٣)، وتحدث صاحب كتاب الأضداد في كلام العرب، أبو الطيب فقد اعطى مفهوما دقيقا للأضداد بقوله: وضد كل شيء مانلفاه نحو البياض والسواد، والسخاء والبخل، وليس كل ما خالف الشيء ضدا له، ألا ترى أن القوة والجهل مختلفان وليسا ضدين، وإنما ضد القوة الضعف وضد الجهل العلم (اللغوي، ١٩٦٣، صفحة ١١)، فمن تعريفه نستبين أن التضاد هو تسمية شيئين متضادين باسمين مختلفين، وهذا هو المعنى الجوهرى للتضاد نحو الخير والشر الحلو والمر وهكذا.

التضاد في الاصطلاح:

جاء معناه الاصطلاحي متفقا مع المعنى البلاغي، فالتضاد في علم البديع هو الجمع بين الضدين او المعنيين المتقابلين في الجملة، والضدان أما اسمان، وأما فعلا، وأما حرفان، وقد يكونان من نوعين مختلفين كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ﴾ (وهبه، ١٩٨٤، صفحة ٢٣٢)، ولابد لنا من أن نشير الى أن التضاد ليس مجرد ممن يحسن الكلام ويزينه، بل هو من صميم الصورة الشعرية، واكثر من ذلك هو أساس في فلسفة الشعر نفسه (ابو غالي، ١٩٩٥، صفحة ٢١).

فظاهرة التضاد والمقابلة تعد ابرز ملمح في بنية الشعر المعاصر فهي لا تأخذ صورة موحدة بل تجيء في انساق متباينة (عبد المطلب، ١٩٩٥، صفحة ١٤٧)، ومن العلماء البلاغيين والنقاد ممن تحدث عن التضاد، قدامة ابن جعفر واطلق عليه اسم التكافؤ بقوله: هو ان يصف الشاعر شيئا او يذمه، او يتكلم فيه بمعنى ما، أي معنى كان، فيأتي بمعنيين متكافئين، والذي اريد بقول متكافئين في هذا الموضع: متقاومان، أما من جهة المضادة او السلب والإيجاب او غيرها من أقسام التقابل (ابن جعفر، ١٩٧٨، صفحة ١٤٣)، وقد سبقه الجاحظ بقوله: (طبقا: ومن علم حق المعنى ان يكون الاسم له طبقا وتلك الحال له وفقا، ويكون الاسم له لا فاصلا ولا مفضولا، (الجاحظ، ١٣٦٧-١٩٤٨، صفحة ٩٣/١)، واتفق العسكري وابن رشيق القيرواني فكلاهما يراها الجمع بين الشيء وضده في الكلام او في البيت الشعري، مثل الجمع بين البياض والسواد والليل والنهار (العسكري، ١٩٥٢، صفحة ٣٠٧)، (القيرواني، ١٩٨١، صفحة ٥/٢)، وتحدث ابن معصوم المدني عن المطابقة بقوله: الطباق يسمى المطابقة والتطبيق

والتكافؤ، هو الجمع بين معنيين متضادين اي معنيين متقابلين في الجملة قالوا: ولا مناسبة بين معنى المطابقة لغة. ومعناها اصطلاحا فإنها في اللغة الموافقة يقال: طابقت بين الشئيين، اذا جعلت احدهما على حذو الآخر. وطابق الفرس في جريه: اذا وضع رجليه مكان يديه، والجمع بين الضدين ليس موافقة (المدني، ١٣٨٨-١٩٦٨، صفحة ٣١)، اذا فالعرب استعملت المطابقة مصطلحا للدلالة على الجمع بين الضدين أرادوا به التطابق التام بينهما، على أساس التخالف التام بينهما وشدته، فالمتضادان مختلفان متقابلان متعاندان، وإطلاقهم اسم المطابقة على هذا الفن متاتي من اهتمامهم بالعلاقة وإبرازها وإبراز دورها في الكلام أو القول البليغ، ولأسيما أنها من المشقة والصعوبة والشدة التي تستلزم فكرا وقدرة إبداعية وموهبة أدبية لتحقيقها.

التضاد كما مر بنا ليس مجرد مُحسّن بلاغي، بل هو داخل في صميم الصورة الشعرية، واكثر من ذلك هو أساس في فلسفة الشعر نفسه (ابو غالي، ١٩٩٥، صفحة ٢١)، أما اذا بحثنا التضاد من الناحية النفسية والذهنية فهو يخلق صورا ذهنية ونفسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القارئ ووجدانه، فيتبين ما هو حسن منها ويفصله عن ضده، وعندما نتحدث عن علاقة التضاد بالشعر وكما يراه عز الدين بقوله إن الكلمة في الشعر ليست مجرد صوت له دلالة وإنما هي وجود وحضور له كيان وجسم (اسماعيل، ١٩٦٦، صفحة ١٨١)، وكما ذكرنا سابقا ان التضاد ليس مجرد محسن بلاغي، فله دلالات سيميائية لكونه يثير حركة ديناميكية في السياق النصي، وتحقق التفاعل بين المعاني والأخيلة والشخصيات، مما يسمح بإعادة ترتيب بنية النص بشكل أكثر تفاعلا وانسجاما (الظاهري، ٢٠٠٣، صفحة ٥٣٥)، وجاء تعريف التضاد في معجم البلاغة العربية للدكتور بدوي طبانه: التضاد من وجوه التقابل... ووصف الأشياء بالمتضادين في ان واحد وهو من عيوب المعاني (طبانه، (د.ت)، صفحة ٣٤٧) فمن ألوان التضاد التي تلونت به مناجاته محاكاته للطبيعة بنوعها الصامتة والمتحركة

قائلا في (٨) فقد استهلها بثنائيات ضديه وكما سنرى:

عجائبك يارب تكتنفي

منذ ان خرجت من بطن امي

وحتى شارفت شمسي على الغروب

واصغرها اكبر من ان يحيط به اي عقل،

إن فتحت عيني او اغمضتهما

فعلى الف الف عجيبة

وان فتحت في او اطبقته

فعلى الف الف عجيبة

.....

ومع العجائب انام واقوم

فقد استهل ميخائيل صلاته بثنائيات ضدية هي {اصغرها- اكبر، فتحت- اغمضتهما، فتحت –أطبقته، انام - اقوم}، ثم

يستمر بمناجات تحكمها الثنائيات الضدية في (١٢) تتقارب وتتشابه في جوانب كثيرة وفي الصفحة التي تليها (١٣) يقول فيها:

وتتباع وتخالف في جوانب كثيرة

ولكنها جميعها – من اصغرها الى أكبرها

تؤلف فتنة تلو فتنة للعين والفكر

وللخيال والوجدان

ولقد زينت الأرض، فوق ذلك

أروع الزينة:

زينتها بالجبال والأنهار والبحار

وبالليل والنهار

فالمناجاة مستمرة بتضاد من النوع التركيبي، اذ يمثل كل مقطع من مناجاته، فالتضاد لا يقع بين لفظي {تتقارب –

وتتباع، تتشابه –تختلف، اصغرها – أكبرها، الليل- النهار} فحسب وإنما بين التركيبين اللذين يشيران الى التعاقب بين الليل

والنهار وبين الكبر والصغر، وهنا الكثير من الشواهد وكما سنبينها في (١٥) قائلاً:

وعجيب كل ما فيها وما علمها

من اصغر جرثومة وبعوضة

حتى اكبر فيل وحيوت

ومن ذرة الرمل وقطرة الماء

حتى اعلی جبل وأوسع محيط

ومن احقر نبتة حتى اعقى أرزة

.....

وفي (١٦) نجده قائلاً مستكملاً حواراً مع خالقه الذي تلون بالتضاد:

ويعرفون كيف عن انفسهم

وعن صغارهم وحياضهم يدافعون

ويقراون في كتاب الليل والنهار

متى يعملون ومتى يستريحون

ومتى ينامون ويقومون

ويقرؤون في كتاب الفصول

انى يقيمون وانى يرتحلون

فكان التضاد قد وقع بين {الليل – النهار، يعملون – يستريحون، ينامون – يقومون، يرتحلون}، ان بنية التضاد

بما تخلقه من علاقات بين العناصر المتقابلة قد أسهمت في تجسيد رؤية ميخائيل وفلسفته، وما كان لها ان تحقق ذلك لو لم تتداع

في توال لغوي فتأملاته الفلسفية في لوحاته الفنية التي تحكمها ثنائية الليل والنهار والنوم والقيام والارتحال والإقامة يكشف عن

ماتخفي نفسه وبحثه الدائم عن سر الخلق وابداع الخالق، وهذا ما نجده في استرساله في مناجاته في (١٧) قائلاً:

بالنطق، وبالعقل، وبالخيال، وبالحدس، وبالإرادة،

وبمعرفة الخير والشر

ومن هنا مصدر هنائي وشقائي

بالنطق نتفاهم أنا وأخواني الناس فتنقارب

وبالنطق لا نتفاهم فنتباعد

وكثيراً ما نتخاصم ونتناهش

الى حد ان تهدر دماءنا

وندمر العامر من ديارنا

.....

ويقول في (١٨)

فكأنما الكلمة سيف ذو حدين

حد صالح، وحد طالح

أو كأنما الكلمة همزة وصل

وهمزة قطع في ان معا

أو كأنها العسل الممزوج بالحنظل

بالنطق اسلك مسالك العشاق

وبالنطق اكره حتى الاحتراق

بالنطق اغني

وبالنطق اندب

بالنطق اصلي

وبالنطق اعربد

وبالنطق اناجيك

وبالنطق اجافيك

في الصفحة (١٩) يكمل قائلاً:

بالنطق اشهد لك

وبالنطق اشهد عليك

ولو كان السكوت المطبق بمستطاع

لاثرت السكوت

افمقضي علي ياربي

ان اعيش ممزقا

بين نطق لاينقع غلتي

وسكوت غير مستطاع

فقد جاء التضاد السياقي بين لفظي {سكوت-غير مستطاع، اناجيك – اجافيك، اغني -اندب، لك- عليك} اذ يتناوب الضدان مشكلان كيان وماهية التضاد، وثناء هذا الضرب من المقابلات يكمن في قدرته على توسيع مجال الكلام، او تضيقه، تدقيقا لحقيقة الظاهر منه عن طريق الايحاء بالباطن، (الطرابلسي، ١٩٨١، صفحة ١٠٣)، وكما هو واضح ان ماسبق هو ثنائيات ضدية لغوية، وكذلك قوله: في (٢٠)

اي عطية هو"

اي بلية هو"

جواب افاق هو العقل

لايستقر لحظة واحدة في مكان واحد

ولايسير في اتجاه واحد

فكانه البرق في السحاب

أما مطاياها في تجواله

فالعين والأذن

والأنف واللسان

واليدان والرجلان

وهو حريص ان تجمع كل ماتبصره العين

وكل ماتسمعه الأذن

وكل مايشمه الأنف

وكل ما يتذوقه اللسان

وكل ما تتلمسه اليدان والرجلان

الصورة الشعرية هي أساس من الأسس التي تشكلت بها النصوص التي جاءت بها المناجاة فضلا عن اعتمادها الأول على التضاد فالأديب ميخائيل يسعى الى الإبداع من خلق الصورة الشعرية المكللة بالتضاد، ولا ننسى تازر وتعاضد الصورة المتلونة بالتضاد من أهمية نفسية للكاتب نفسه وللمتلقي واغلب المناجاة أعلاه كلها جاءت مركزة ومستمدة من الحواس، في قوله {تلمسها اليدان والرجلان} فهذا تضاد ظاهر اليد التي تضاد الرجل، وفي قوله {اي عطية هو، واي بلية} كان الاستفهام التعجبي قد تعاضد مع الأسلوب البلاغي التضاد ليخرج لنا هذا التازر والتضاد بين لفظي عطاء والبلاء التي لا يمكن أن يكون بينهما إلا هذا التضاد والتنافر لأن كل واحدة منهما تضاد الأخرى ولا يمكن الجمع بينهما

.....
ثم يقول: في (٢٢)

ولولا ذلك لما كان للعقل

أن يصل دقيقة بالتي قبلها وبعدها

وأمسه بيومه

ويومه بغده

ويستمر في حوار مع ربه او مناجاته لربه قائلا: في (٢٨)

ولكنها ليست النطفة

وانها في كل سائل وجامد

ولكنها ليست السائل ولا الجامد

وظف ميخائيل التضاد على سبيل التناوب {الدقيقة قبلها وبعدها}، {السائل والجامد}، {أمسه بيومه، وغده} فقد جعل

من هذا التضاد صورة لتعظيم قدرة الله سبحانه على أن يأتي بأيام متتالية الواحدة تلو الأخرى ليكن الأمس واليوم والغد، ثم هذا

التضاد الذي جعله الله عز وجل بين السائل والجامد ليكون اية من اياته متمثلا بالقدرة العجيبة من صنعه وجعل توظيف التضاد

لبيان هذا المشهد العجيب.

وفي ذات المناجاة في (٣٠) كما في الاتي

بالعدل والحرية

بالإخاء والمساواة

بالعافية التي لا يمسها مرض

بالمعرفة التي لا يفوتها علم شيء

تحضر ظاهرة الأسلوبية التضاد حضوراً حيويًا في كتابة ميخائيل ولاسيما هنا في نجوى الغروب، إذ هي عنصر نفسي مشتبك بالتجربة لدى ميخائيل وتنمو من داخل النص وليس من خارجه، وكما أشار كمال أبو ديب أن لغة التضاد تمثل أحد منابع الرئيسة للفجوة: مسافة التوتر، وأننا إذا أحسنّا اكتناهِ التضاد وتحديد مختلف أنماطه، ومناحي تجليه في الشعر، استطعنا في خاتمة المطاف أن نموضع أنفسنا في مكان هو الأكثر امتيازاً وقدرة على معانيه الشعرية وفهمها من الداخل وكشف أسرارها (أبو ديب، ١٩٨٧، صفحة ٤٥)، التضاد تشكيل فكري ونفسي في الوقت ذاته، فحركة التضاد حركة ظاهرية توجهها حركة نفسية داخلية، وهو يكشف ظلال النفس العميقة، في تجاوز الأضداد في نفس ميخائيل، أن التضاد أسلوب في التفكير، وليس زينة لفظية أو معنوية كما مر سابقاً في أعلاه، فهو يعمل على تحفيز فكر المتلقي من الجمع بين أطراف متباعدة موضوعاً لكنها متفقة أثراً، فبنية التضاد هنا رسالة يوجهها ميخائيل إلى المتلقي فضلاً عن كونها صلاة ومناجاة، تبين فيه فكره وفي (٣٢) نجده يقول:

والحركة التي لا تفضي إلى بركة

والنزاع المسلح وغير المسلح

أشد فتكا وهولا من النزاع المسلح

ثم لجاء الكاتب إلى التضاد لبيان الحركة وبين عدم الحركة وهو السكون المطلق فهو تضاد بين الحياة المتمثلة بالحركة وضدها الموت المتمثل بعدم الحركة، والتضاد الذي يكون بين النزاع الذي يكون بسلاح مضاداً للنزاع الذي يكون بغير سلاح الكاتب أراد بهذا النزاع الذي يكون بلا سلاح هو الحوار وأن اختلفت الآراء فيه.

وفي الصفحة (٣٤) يقول

وبكل بسمة انفرجت عنها شفتاي

وكل عبرة ذرفت عينا ي

تضادت البسمة مع العبرة، فالبسمة تكون مع الفرح والابتهاج، اما العبرة التي تذرفها العيون تكون متماشية مع الالم

واللوعة والحزن.

.....

فلا قريب وغريب

ولا اصيل ودخيل

اشرك ميخائيل بين لفظين متضادين دل بهما على ان الفرق بين القريب والغريب والاصيل والدخيل، شيئان متضادان

لايمكن ان يجتمعا او ان يكون الواحد منهما بقرب الاخر.

وعندما نصل الى الصفحة (٥٤) يقول في صلاته او مناجاته يقول فيها مستمرا بهذا اللون

لماذا، ياربي

يتالم ويموت كل شيء

في عالمك الذي لانعرف له بداية

او نهاية

يتسأل الكاتب عن موضوع اتعب اغلب الناس، ذلك الالم الذي يمشي مع الموت، ثم جاء بتضاد بقوله الذي لا نعرف له

بداية او نهاية، اذ جمع بين البداية والنهاية اللتان لا يمكن ان يجتمعا في صورة واحدة قصد فيها التأثير على المتلقي فمن المنطقي لا

يمكن ان نجمع بين البداية والنهاية، ويستمر في مناجاته في حديثه عن الالم، ولذة البقاء التي تضاد الموت الذي جاء بمعنى فقدان

اللذة فلذة البقاء هي تضاد لفقدان اللذة وهذا مبين في الابيات الاتية

.....

والالم لا يكون الا حيث تكون اللذة

فعلى قدر ماتكون اللذة يكون الالم بفقدانها

وانت ياربي، قد جعلت لذة البقاء

اعظم لذة

اذ فرشت الارض والسماء

.....
في نفس الصفحة (٥٧) يستمر قائلا

في ذلك الهيكل يحيا الانسان عمره

طال ام قصر

فيه ينام ويقوم

فيه ياكل ويشرب

فيه يحلم احلامه العذاب وغير العذاب

وفي الصفحة التي بعدها يقول

فيه يقيم ولائمه ومائمه

فيه تنقف وتعشش افكاره وهواجسه

ونياته وشهواته البيض والسود

فيه يضرع نيران حبه ونيران كرهه

فيه يقدم قرابينه وفيه يرتكب الموبقات

فيه ينعم بجماليات الفردوس

وفيه يشوى بسعير جهنم

فيه يرتفع الى سنائك الابهى

وفيه ينحدر الى اظلم ظلمات العدم

هنا جاء ميخائيل بكل الحواس والتي يمارسها الانسان او هي موجودة فيه واشركها جميعا في عملية تضاد فيما بينها

{الطول والقصر، النوم والقيام، البيض والسود، الحب والكراه، السناء والظلمة}، فكل لفظة من هذه الالفاظ تضاد اللفظة

ال اخرى في صيغة ادبية راقية لاتخلو من جمال الصورة وتعابيرها

.....
في (٦٤) يقول

ويبقى فضاؤك اللامتناهي

لا يتقلص ولا يتمدد

ولا يتحول او يتبدل

.....

وبعدها بصفحات نجده يقول

كان اكتب الغفران بدل الحق

والعفة بدل التهمتك

والمحبة بدل الكراهية

ولغبطة الذين طغت المحبة في ذاكرتهم

على كل شيء عداها

أو لئلك هم الذين قطعوا

طريق الخير والشر حتى نهايته

وظف ميخائيل التضاد بصورة فنية في قوله {يتقلص ويتمدد، العفة والتهمتك، المحبة والكراهية، الخير والشر} لقد خلق

ميخائيل هذه الصور في التضاد اذ لم يات به مستقلا على نحو التضاد فحسب بل كان شريكا في تشكيل الصور الابداعية

.....

وفي الصفحة (٧٤) يقول

ذلك ما تجلى لي، ياربي

ساعة اناجيلك

وساعة اصغي اليك

.....

وبعد هذه الصفحة نجده مستمرا في مناجاته قائلا

فلا اكاد انصرف اليك

حتى انصرف عنك

كم مرة حاولت ان امسح عيني

من مشاهد الارض والسماء

جميلها وقبيحها

كيما اشهد بهاءك وحدك

فما لبثت عيني

ان عادت ترشف من مفاتن الارض والسماء

{اناجيك واصغي اليك، عنك واليك، الارض والسماء، جميلها وقبيحها} الفاظ جاءت على سبيل التناوب اذ لايمكن ان

يكون الاصغاء والمناجاة في ان، كذلك الارض والسماء لايمكن الا ان يكون بينهما تضاد كذلك قوله الجمال والقبح فمن غير المعقول

ان يكون الجمال والقبح متساويان فلا بد لهما من التضاد والتنافر فيما بينهما

.....
في (٧٦)

كم مرة افرغت اذني

من اصوات الارض والسماء

ماكان منها في مثل نعومة شدو الهزار

او في مثل خشونة نهيق الحمار

كيما لاتسمع غير صوتك

فما عتمت الاذان ان عادت فامتلات

باصوات تنشرح لها النفس غاية الانشراح

واصوات تتقزز منها منتهى التقزز

.....
وتطبع اكثر من قبلة على وجهي وهي تردد

انا بحب جدو قد البحر

وقد السما والارض

واتمنى لو كان لي الف الطفلة بشغافة

وان ادرا عنها كل سوء

وان اخترق حجب الماضي والمستقبل

فاعرف من اين جاءت

والى اين تمضي

ويتابع ميخائيل جميل مناجاته في (٨٣)

وابصرها في صراع المخلوقات بعضها مع بعض

ذلك الصراع العنيف الرهيب

صراع البقاء والفناء

الذي لا تخلو منه غابة او فلاة

ولاجبل او واد

ولاجدول او بحر

والذي لاهدئة فيه ولاهودة

لا في الليل ولا في النهار

ولا في اي فصل من الفصول

وابصرها اكثر ما ابصرها

لقد احتوت مناجاته على توظيف للتضاد بصورة واضحة ومعبرة فضلا عن شد المتلقي وكما يجعله متخيلات لكل ما

يذكره مستخدما كل ما له صلة بالتعبير الحسي ومنطلقا من مرادفة الأساليب البلاغية الأخرى متمثلا بقوله {الأرض والسما، شدو

الهزار ونهيق الحمار، الماضي والمستقبل، جاءت وتمضي، البقاء والفناء، غابة وفلاة، جبل ووادي، الليل والنهار} فكلها متنافرة مع

بعضها البعض فلا يمكن لليل الا أن يتضاد مع النهار وكذلك الجبل والواد، ولا يمكن الا ان يتضادا الشدو و النهيق وهكذا مع الأرض

والسما، والماضي والمستقبل، تضاد الغابة الغناء مع الصحراء التي لا يرى فيها الا تلك الرمال واللون الواحد وكأنها لاهياة فيها، وهذا ما أراده ميخائيل من صوره المتضادة ان يبين ان لكل شيء له ضد

.....

وذلك القناع يحجب عني

سناء وجهك الذي ماشوته ظلمة قط

.....

وحيث يستमित الناس

كبيرهم وصغيرهم

وغنهم وفقيرهم

في (٩٥)

وتوزيعها بالقسط على ابناء الارض

ولا لتحويل الصحارى الى جنات غن

.....

التي من شأنها ان تحرق الأخضر واليابس

في الأرض

وان تحول عمارها خرابا

.....

ومن المؤمن والملحد وكل أصناف البشر

.....

في تحريك ماكيناتها

او في استخراج المواد الضرورية لها

من باطن الأرض او من سطحها

في (١٢١)

الا لينعم به المقعد منكم والمجنح

والأبرص والسليم

والجاهل والعاقل

والأبيض والأسود

والملحد والمؤمن

يميل ميخائيل فيما تقدم من مناجاته الى استخدام الصورة البصرية في تضاده للأشياء فالصورة البصرية هي التي تساعد على نقل رسالة من مرسل الى متلق باستخدام علامات مناسبة، فللبصر أهمية كبيرة في ادراك الصورة الحسية {السوء والظلمة، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، الأعمار والخراب، الباطن والسطح، الأبرص والسليم، المقعد والمجنح، الأبيض والأسود، العاقل والجاهل، الملحد والمؤمن}، فقد كان لحاسة البصر دورا مهما في رسم الصور المتمثلة في كل ما جاء به من مناجاته، اذ ربط بين الصور بعطف أحدهما على الأخرى، فجعل من الصورة البصرية أساسا في اغلب مناجاته وليست هنا فقط أساسا للصور العقلية التي من شأنها تأكيد حقيقة الصورة البصرية التي اعتمدها في إظهار تضاده

.....
كما قيل فيهم من زمان

لهم عيون ولا يبصرون

ولهم اذان ولا يسمعون
.....

في (١٢٣)

وبعضها على صورتني

وهو القليل القليل

وبعضها يختلف عني صورة ومثالا

وهو الكثير الكثير

وهذا القليل القليل

وهذا الكثير الكثير

.....

في (١٣٨)

ولكني لست سيده المطلق

ادخل اليه ما اشاء ساعة اشاء

وانبذ منه ما اشاء ساعة اشاء

وامنع التسلل اليه على ما لا اشاء

وهل لي او لاي ملاك او شيطان

وتسمر مناجاته التي تلونت بالتضاد الصور البصرية {القليل والكثير، عيون لا يبصرون} صور ميخائيل بصورة بصرية

الشيء القليل والكثير، ثم عيون لا تبصر، فجاء بلفظة عيون والتي يكون معناها غالبا عين الانسان التي تلحظ تغيير الزمن او

لا يلحظها الآخرون كالخير والشر، غالبا ما تتأزر الاساليب البلاغية فيما بينها كما نجد في قوله {ما اشاء واشاء} فقد استخدم

اسلوب التكرار في قوله كثير وقليل {فقد كررها اربع مرات، وكذلك قد كرر لفظة كثير اربع مرات، كرر الفعل اشاء ثلاث مرات} وكلها

كانت متضادة فيما بينها

.....

وحتى الساعة

انه لعوالم في عوالم في عوالم

منها التفاهة منتهى التفاهة

ومنها الجليل غاية الجلالة

.....

فهو لا ينفك لحظة واحدة

ان في الليل او في النهار

وان في اليقظة او في المنام

.....

في (١٤٠)

وكانه الولد يذروها بيديه الاثنين

ودونما انقطاع

فلا هو يستريح

ولا هي تتعب

ولا هو يزيد فيها حبة

او ينقص حبة

.....

في (١٤٢)

ان الفكر، لايفتا يتكلم

ولكن دون صوت

فما اكثر ان يخاطب ذاته

او يخاطب شتى الاشياء والظروف

وشتى الكائنات القريبة والبعيدة

نجد التضاد في قوله {الليل والنهار، اليقظة والمنام، يستريح والتعب، يزيد وينقص، القريبة والبعيدة} فكل لفظة تضاد

اختها وهذه كلها تعد من الصور الحركية فالصورة الحركية عن غيرها من الصور الثابتة، وقد تشترك بدلالاتها مع الصور الاخرى التي

يمكن ادراكها بالحواس، وقد اعتمد عليها ميخائيل كما وجدناه في اعلاه

وشتى الارواح الهائمة في الارض

او في الفضاء

وحتى الالهة !

لوكان لي ان اسجل

كل مايقوله فكري لفكري

في كل ساعات الليل والنهار

.....

في (١٤٤)

كيف لي ان اهنأ بالعيش واياه؟

انه الامر الذي لامرء لامره

والناهي الذي يابى علي الا الرضوخ لنهيه

انه سيدي المطلق، المستبد

وانا عبده الخانع، الذليل

.....

في (١٤٥)

ان اقلب الوضع بيني وبينه

راسا على عقب

فاصبح سيده المطلق

ويصبح عبدي المطيع

.....

في (١٤٩)

ولا خوف من زوال هذه جميعها

لا زهو بانتصار كبير او صغير

ولا انساق بهزيمة نكراء

لا تطلع الى ساعة ضاحكة

ولا هروب من ساعة باكية

لا ندم على على دقيقة مضت

وتمسك بدقيقة تعاش

وقلق على دقيقة تاتي

لا عين تستانس بمشهد وتنفر من مشهد

لا اذن تطرب بصوت وتتخدش بصوت

لا يد تستنعم الخز وتستخشن الشعر

لا لسان يقبل على الشهد ويدبر عن العلقم

في (١٥٠)

لا انف ينفث لمسكن الغزال

وينغلق دون قذارة الطربان

لا فوق ولا تحت

لا قبل ولا بعد

لا [انا] ولا [غير انا]

لا انداد ولا اضداد

مما في السماء وعلى الارض

بل هناك وحدة سرية، قدسية، سرمدية

لا تدرك ولا توصف

تتلاشى فيها، البدايات والنهايات

والساعات والمسافات

وتبقى وحدها لا تحول ولا تزول

ولا شريك لها في وحدانيتها

في (١٥٥)

حتى اذا اذنت شمسي بالغروب

صفقت لها جوارحي

وايقنت ان غروبها

سيكون شروقا

كل ما تقدم من الشواهد في الصفحات السابقة، نجد ان هيمنة التضاد ولاسيما الايجاب منه قد تلونت به المناجاة في الصفحات السابقة وهذا دليل على وفرة هذا الاسلوب وتمكن ميخائيل منه حتى جاء هذا الاسلوب البلاغي طيعا له متمكنا منه ساعده في كتابة مناجاته، هذه المناجاة التي تفرد بها فاصبحت فنا تفرد به وكما ذكرنا انها فنا ليس بالشعر ولا بالنثر، فاصبح له حضور وملح قد هيمن على بناء نصوصه وكما ذكرنا سابقا ان التضاد ليس مجرد محسن بلاغي بل له دلالات سيميائية لكونه يثير حركة ديناميكية في السياق النصي، فكل الشواهد الواردة آنفا هي اشكال وصور للتضاد وبهذا تميزت مناجاته، وكان هدفنا من هذا الكشف عن القيمة الدالة لهذه الظاهرة وعن دورها في تجسيد رؤية ميخائيل فكل ما تقدم من الصفحات السابقة تمثل لوحة فنية قائمة بذاتها، فقد وصل ميخائيل الى الاضداد المتعاقبة او كما يسميها محمد عنبر تضاد القمم في كتابه (عنبر، ١٩٨٧، صفحة ٤٤٥). فيذكر: قولهم الحر ضد البرد، والظلام ضد النور، والشك ضد اليقين، والحركة ضد السكون، اي عكسه، فهي أشياء متعاكسة، ولايماري احد ان التناقض قائم بين هذه الأضداد وهي أضداد قمم ولكنها ليست الأضداد ذاتها الموجودة في الشيء، التي يتصل بعضها ببعض، ان هذه الأضداد تمثل جزءا من المرحلة ولا تمثل المرحلة كلها.....

الخاتمة

وفي نهاية بحثنا هذا فان كل ما تقدم من مناجاة تقدم بها ميخائيل نعيمة الى ربه هي ثنائيات ضدية قد جسدت كل ما يدور في فكره ونفسه، ففي تضاده يحمل دلالة الجمع، ودلالة النشر والتفريق، والرغبة والرفض، فهو يعلن ان الحياة لا تسير على وفق ما تريده الناس وأهواء البشر، ولعل ميخائيل استطاع استثمار كل الدلالات التعبيرية للثنائيات الضدية في الكشف عن المتناقضات المجتمعية، فجسد سلبياتها جلية وواضحة أمام عين المتلقي واستطاع ان يصل بالمتلقي من مناجاته الى حقيقة الكون، اذ ان الحياة لا تجري على وفق أهوائه وإنما على وفق القوانين الكونية، وبناء على ما كتب ميخائيل من مناجاة قد جسدت في كل ما ورد سابقا من شواهد، فهي تضاد قد منحت النص الحياة وجعلته أكثر رونقا وجمالا.

ولعلنا نجمل ما قدمناه عن مناجاة ميخائيل قائلين في نهاية رحلتنا معه:

ان المعنى الاصطلاحي والبلاغي يتفقان مع المعنى اللغوي في التضاد، كما ان التضاد ليس محسناً بديعياً فقط بل هو طاقة تعبيرية ذو دلالة لها دورها البارز في سياق النص، وتوقيت التواصل بين المبدع والمتلقي، فضلاً عن إسهامات التضاد واثرائه النص ومنحه الحيوية والحياة والحركة مما جعل المتلقي منجذباً اليه لا يمكنه الانقطاع عن القراءة فضلاً عن كشف التضاد عن قدرة ميخائيل الإبداعية في استثمار أهمية وقيمة وزبدة التضاد واستطاع ان يوجهه كيفما شاء، كشفت الثنائيات الضدية عن قلق وخوف وانفعالات ميخائيل التي تتصارع في أعماق ذاته وفكره فكانت المناجاة خلاصة ما تقدم به من عمل كان التضاد مركبته التي اشرع في مناجاته بينه وبين ربه.

المصادر والمراجع

١. ابن رشيق القيرواني. (١٩٨١). *العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده* (المجلد الخامسة). (تحقيق: محمد محيي الدين، المحرر) بيروت - لبنان: دار الجيل.
٢. ابن منظور. ((د.ت.)). *لسان العرب*. دار المعارف.
٣. ابو الطيب اللغوي. (١٩٦٣). *الاضداد في كلام العرب* (المجلد (د.ط.)). (تحقيق: عزة حسن، المحرر) دمشق: المجمع السوري.
٤. ابو هلال العسكري. (١٩٥٢). *كتاب الصناعتين الكتابة والشعر* (المجلد الأول). (تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم، المحرر) مطبعة عيسى البابي الحلبي.
٥. السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني. (١٣٨٨-١٩٦٨). *انوار الربيع في انواع البديع* (المجلد الأول). (تحقيق: شاكر هادي شكر، المحرر) العراق: مطبعة النعمان النجف الاشرف.
٦. د. بدوي طبانة. ((د.ت.)). *معجم البلاغة العربية*. جدة: دار المنارة، دار الرفاعي.
٧. سورة مريم. (بلا تاريخ).
٨. عز الدين اسماعيل. (١٩٦٦). *الشعر العربي المعاصر، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية* (المجلد الثالثة). دار الفكر العربي.
٩. عمرو بن بحر الجاحظ. (١٣٦٧-١٩٤٨). *البيان والتبيين* (المجلد الأول). (تحقيق: عبد السلام هارون، المحرر) القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
١٠. قدامة ابن جعفر. (١٩٧٨). *نقد الشعر* (المجلد الثالثة). (تحقيق: كمال مصطفى، المحرر) مكتبة الخانجي.
١١. كمال ابو ديب. (١٩٨٧). *في الشعرية* (المجلد الأول). بيروت - لبنان: مؤسسة الابحاث العربية.
١٢. لابن حزم الظاهري. (اذا، ٢٠٠٣). *قراءة سيميائية في طوق الحمامة*. مجلة جنود، العدد ١٢ (مج ٧).
١٣. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. (١٩٧١). *القاموس المحيط* (المجلد الثالثة). (تحقيق: ابو الوفاء نصر الدين، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

١٤. مجدي وهبه. (١٩٨٤). معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب (المجلد الثانية). كامل المهندس، مكتبة لبنان بيروت.
١٥. محمد الهادي الطرابلسي. (١٩٨١). خصائص الاسلوب في الشوقيات. منشورات الجامعة التونسية.
١٦. محمد عبد المطلب. (١٩٩٥). بناء الاسلوب في شعر الحداثة التكوينية البلاغي (المجلد الثانية). مصر القاهرة: دار المعارف.
١٧. محمد عنبر. (١٩٨٧). جدلية الحرف العربي وفيزيائية الفكر والمادة في منهج القطرة (المجلد الأولى). دمشق سورية: دار الفكر.
١٨. مختار ابو غالي. (١٩٩٥). الشعر ولغة الضاد، الرؤية الميدان والتطبيق. حويليات كلية الاداب الكويت، الحولية ١٥، الرسالة ١٠٣.